

## 2-4- المنهج السببي المقارن

يصنف المنهج المقارن أو البحث المقارن، أو البحوث السببية المقارنة، في بعض الأحيان مع البحوث الوصفية، لأنها تصف الحالة الراهنة للمتغيرات، إلا أنّ هذا النوع من البحوث ليس قاصراً على وصف المتغيرات، بل يهدف إلى تحديد أسباب الحالة الراهنة للظاهرة موضوع الدراسة، ولذلك يمكن اعتباره بشكل عام نوعاً من البحوث قائماً بذاته (رجاء، 2006، p. 227). ولكي يصل الباحث إلى معرفة كيفية حدوث الظاهرة وأسبابها، يعتمد إلى إجراء مقارنات لجوانب الاتفاق والاختلاف بين عدد من الظواهر لكي يتعرف على العوامل والمتغيرات المتكررة التي تصاحب أحداثاً أو ظروفًا معينة، وما إذا كانت هذه العوامل أو المتغيرات تسبب حدوث الظاهرة بهذه الطريقة، أي التأكد من التأثير السببي لعوامل ومتغيرات معينة في حدوث ظواهر معينة (محمد، 1983، ص ص. 141-142).

ويفضل العلماء استخدام المنهج التجريبي حينما يدرسون السببية أو العلية، ولكن الطريقة السببية المقارنة تكون في بعض الأحيان الطريقة الوحيدة التي يمكن استخدامها للتصدي لإحدى المشكلات الأساسية. ففي المنهج التجريبي يرتب الباحثون المواقف أو الظروف ويضبطون كل العوامل ما عدى المتغير المستقل، الذي يتحكمون فيه ويغيرونه لكي يكتشفوا ما يحدث نتيجة لذلك. ولما كانت إعادة المواقف أو الظروف التي تجرى التجربة في ظلها أمراً ممكناً، فإنّ التحقق من صدق النتائج يكون أكثر دقة نسبياً مما لو استخدمت طرق أخرى. إلا أنّه لا يمكن استخدام الطرق التجريبية في بعض الظروف. إذ يوجد العديد من المشكلات في العلوم السلوكية (وكذلك الأمر بالنسبة لبحوث الاتصال) لا يمكن حلها بواسطة المنهج التجريبي، فنظراً لتعقيد الظواهر الاجتماعية (والاتصالية)، لا يستطيع الباحث دائماً أن ينتقي ويضبط العوامل اللازمة لدراسة علاقات السبب والنتيجة في موقف معلمي مصطنع. ففي بعض الحالات يعد استخدام الطريقة التجريبية إجراء غير عملي أو مستحيلاً لما يستنفذه من وقت وجهد ومال، مثل دراسات حالات الشغب. ومن هنا لا يمكن في بعض الحالات استخدام التجارب لدراسة السببية، ولذا ينبغي أن يتحول الباحث إلى المنهج السببي المقارن (ديوبولد، 1997، ص ص. 316-317).

## 2-4-1- تعريف المنهج السببي المقارن

ترى سيما كالين (Sema Kalaian) أنّ البحث السببي المقارن أو بحث ما بعد الواقع، هو أحد أنواع البحوث الوصفية غير التجريبية، لأنه يصف حالة الاختلافات القائمة لدى مجموعات من الأفراد أو الأشياء، مثلما توجد عليها في زمن ومكان معينين. ويسعى البحث السببي المقارن إلى تحديد الأسباب المحتملة

والعلل التي تقف وراء الاختلافات الموجودة. ولذلك فإنّ البحث السببي المقارن يبدأ أولاً باختيار مجموعتين أو أكثر مع وجود اختلافات فيما بينها، ثم تتم مقارنة هذه الاختلافات مع متغير تابع (ناتج). وإلى جانب المقارنة، يحاول البحث السببي المقارن دراسة وتفسير الأسباب المحتملة للاختلافات الموجودة بين المجموعات (Kalain, 2008, p. 729).

يعرّف رجاء أبو علام البحوث السببية المقارنة على أنّها ذلك النوع من البحوث الذي يحاول فيه الباحث تحديد أسباب الفروق في حالة أو سلوك مجموعة من الأفراد. وبمعنى آخر فإنّ الباحث يلاحظ أنّ هناك فروقا بين بعض المجموعات في متغير ما، ويحاول التعرّف على العامل الرئيسي الذي أدى إلى هذا الاختلاف. ويطلق أحيانا على هذا النوع من البحوث «ما بعد الواقع» حيث إنّ العلة (هي القوة الفاعلة والمؤثرة في غيرها) والمعلول (هو الأثر المترتب على تلك العلة والناتج عنها) يكونان قد حدثا ويحاول الباحث دراستهما دراسة تراجعية. ولذلك تكون نقطة البدء الأساسية في المنهج السببي المقارن هو التعرف على المعلول ثم السعي إلى تحديد الأسباب المحتملة له (العلة) (محمود أبوعلام، 2006، ص 227).

ويرى محمد عبد الحميد أنّ منهج السببية المقارنة هو بمثابة نموذج للبحث في العلل والأسباب الكامنة وراء حدوث الظاهرة من خلال دراستها في واقعها الراهن، وحيث يصعب التجريب المعلمي أو ضبط المتغيرات والتحكم فيها. ويعكس من خلال المسمى-المقارنة السببية، أو المقارنة العلية- الأساليب التي تتم للبحث في الأسباب من خلال المقارنة، والإجابة على السؤال لماذا؟ في دراسة الظاهرة الإعلامية (الاتصالية) (محمد، 2000، ص 190).

ويعرفه على معمر عبد المؤمن على أنّه المنهج الذي يتم من خلاله وصف ما هو قائم ثم مقارنة ما هو قائم هنا بما هو قائم هناك، أي بمعنى وصف ما هو موجود في مجتمع ما ومقارنته بما هو موجود في مجتمع آخر في ضوء اختلاف كل من المجتمعين (معمر، 2008، ص 351).

## 2-4-2- المنهج المقارن وبحوث الاتصال

من أقرب التطبيقات لمنهج المقارن في الدراسات الإعلامية (الاتصالية) هي الكشف عن أسباب السلوك الاتصالي لجمهور المتلقين مع وسائل الإعلام، أو اتجاهاتهم من محتواها أو القائم بالاتصال فيها. فمن الناحية التطبيقية للمنهج نجده يبحث بالدرجة الأولى في الكشف عن السلوك الإنساني والظواهر المرتبطة به والخروج بالتفسيرات المحتملة لأسباب هذا السلوك من خلال المقارنة بين المتغيرات وخصائصها للجماعة

المختارة. ولذلك فإنّ مسح جمهور المتلقين وتصميماته يعتبر مجالاً تطبيقياً نموذجياً لمنهج السببية المقارنة في الدراسات الإعلامية (محمد، 2000، ص 194).

كما يمكننا استخدام المنهج المقارن في مجال بحوث الاتصال من خلال مقارنة مستوى الثقافة العامة أو المعارف العامة، مثلاً، بين مجموعات متعددة تقتني بعضها أجهزة تليفزيون أو راديو أو تقبل على قراءة الصحف أو تتصفح مواقع الويب، بينما لا تملك بعض المجموعات الأخرى مثل هذه الأجهزة ولا تقرأ الصحف ولا تتصفح مواقع الويب، مع ملاحظة تقارب المستويات بين هذه المجموعات فيما عدا اختلاف درجة اقتناء وسائل الإعلام أو مشاهدتها. كذلك يمكن دراسة مدى تغير الاتجاهات نحو منشأة معينة أو سلعة معينة أو فكرة معينة بين مجموعات تعرضت بعضها لحملة إعلامية أو إخبارية بينما لم تتعرض بقية المجموعات لهذه الحملات (سمير، 1983، p. 142).

## 2-4-3 - خطوات المنهج المقارن

بالإضافة إلى الخطوات المنهجية العامة للبحث العلمي، فإنّ أهم ما يميّز هذا المنهج من خطوات هو الآتي:

- 1- اختيار جماعة البحث وهي الجماعة أو العينة التي تمثل مجتمع الظاهرة، فحيث يكون الهدف هو دراسة الفروق الناتجة عن مشاهدة التليفزيون، فإنّ جماعة البحث تكون ممن لا يشاهدون التليفزيون. ثم دراسة خصائصها وأنماط سلوكها من خلال مناهج وأدوات جمع البيانات.
- 2- اختيار الجماعة أو الجماعات المقارنة، وهي الجماعة أو العينة التي تجمع لها نفس خصائص وأنماط سلوك جماعة البحث، وتختلف معها في خصائص المتغير المستقل، الذي يقوم بناء الفرض على أساس علاقاته بالخصائص الأخرى.
- 3- اختيار التصميم المنهجي المناسب.

ثم تأتي بعد ذلك الخطوات الخاصة بتصميم أدوات جمع البيانات ثم جمعها، وتبويبها وتصنيفها وتحليلها، وتفسير النتائج على أساس الفروض العلمية والتصميم المنهجي المختار. ويمكن الاسترشاد بالقواعد التي وضعها جون ستيوارت ميل للبحث في العلاقات السببية سواء من خلال التجريب أو غيره من المناهج العلمية. وهذه القواعد وإن كانت لا تصلح في جميع الحالات إلا أنه يمكن الاسترشاد بها في صياغة التصميم المنهجي المناسب (محمد، 2000، ص ص 191-192).

## 2-4-4 - مزايا وعيوب المنهج المقارن

### المزايا

- يعتبر الأسلوب المناسب لدراسة العلاقات السببية في البيئة الطبيعية، حيث يصعب إخضاع المفردات أو ضبط المتغيرات في البيئة المعملية.
- يمكن أن يكون بديلا لبعض الدراسات التي يصعب إجراؤها معمليا لأسباب إنسانية وأخلاقية، مثل تعريض الأطفال لمواد العنف من أجل دراسة أثرها عليهم، أو محاولة تشكيل المعرفة الإنسانية بشكل عمدي من خلال التجريب وغيرها (محمد، 2000، ص. 197).
- اعتماده على الإحصاء الوصفي والاستدلالي بشكل خاص مما يمنحه الأفضلية في دقة النتائج التي يتوصل إليها.

### العيوب

- يحتاج الباحث فيه إلى مزيد من البحث والتقصي لاختبار المتغيرات العاملة وعزل المتغيرات الأخرى حتى يتمكن من التأكيد على مصداقية العلاقة السببية بين المتغيرات العاملة.
- يحتاج إلى جهد كبير من الباحث لبناء الجماعات المقارنة، التي تتشابه في متغيرات كثيرة ما عدا المتغير موضع الدراسة.
- صعوبة تحديد السبب والنتيجة في العلاقات السببية في بعض الظواهر مثل العلاقة السببية بين اكتساب المعرفة وكثافة المشاهدة، حيث يتركز معا بحيث يصعب على الباحث التقرير بأن كثافة المشاهدة هي السبب في الوقت الذي يمكن أن تفسر اكتساب المعرفة كدافع لزيادة المشاهدة أو التعرض للوسائل الإعلامية ومحتواها (محمد، 2000، ص. 198).